شهريات

بقلم رئيس التحرير

١ . نداء مذهل ...

أذهلني ما قرأته في جريدة « الاتحاد » اليسارية التي تصدر في حيفا ويشارك في تحريرها عدد من ادباء الارض المحتلة العرب ...

فقد نشرت الجريدة في عددها الصادر يوم ١٩٧٤/٦/٧ « نداء من ادباء يهود وعرب لوقف الاحتراب وللاعتراف بحقوق الشعبين » . وجاء في المقدمة ان هذا النداء العاجل موجه « الى شعوب المنطقة والعالم، الى حكوماتها والى الكتاب والمفكرين في المنطقة والعالم ضد الارهاب حيثما كان ومهما كان ، ضد الاعتداء على النساء والاطفال ، ضد نيل الاهداف السياسية بالعنف، من اجل اعتراف شعوب المنطقة وحكوماتها بعضها ببعض ، من اجل نشاط الكتاب والمفكرين في خدمة قضايا السلام في هذه المنطقة وفي العالم اجمع . »

المذهل في هذا النداء ان الموقعين عليه ، وفيهم من الادباء العرب سميح القاسم وعصام العباسي وسالم جبران ونزيه خير وسهام داوود وزكي درويش وانطون شماس ومحمد علي طه ، يساوون مساواة تامة بين نضال ما يسمونه « المنظمات المسلحة » ، ويقصدون بها منظمات المقاومة الفلسطينية ، وبين اسرائيل ، فيتخلون بذلك عن تأييدهم للمقاومة التي تمثل الشعب الفلسطيني وطموحه للتحرير والعودة ...

وقد كفاني الشاعر محمود دوريش مؤونة الرد على هذا النداء المشبوه (١) ، ففند ادعاءات النداء ومغالطاته . ويهمني هنا ان اعبر عما احس به عدد كبير من المثقفين العرب من خيبة واستياء حين اطلعوا على مضمون هذا النداء ، وايقنوا ان ادباء المقاومة العرب في الارض المحتلة سيقوا الى تبني موقف يتناقض جذريا مع ادب المقاومة كما عرفناه في كثير من الآثار ، ومنها آثار عدد من هؤلاء الادباء الموقعين .. فكيف انزلقوا الى مثل ذلك ، وتنكروا لمواقف لهم سابقة ؟

ان اهمية ادب المقاومة في فلسطين المحتلة ان رؤيته للقضية الفلسطينية جزء لا يتجزأ من رؤية الشعب الفلسطيني ، ومقاومته في داخل الارض المغتصبة متممة لمقاومة فصائل هذا الشعب ممثلة في المنظمات ... فاذا كف عن ان يضطلع بهذا الدور، فقد قيمته وسقط في براثن العدو الصهيوني !

واذا كان ثمن البقاء في الارض المحتلة تبني وجهات نظر تتناقض واهداف الثورة الفلسطينية ، حتى ولو كان ذلك خضوعا للقمع والارهاب ، فان المطلوب من ادباء المقاومة في التربة المغتصبة ان يخرجوا منها ليتابعوا نضالهم خارجها ...

اننا نريد ان نعتقد بان ادباء المقاومة العرب الذين وقعوا على البيان ، انما كانوا ضحية تضليل ، ونود ان نستمع الى صوتهم يتبرأ من هذا البيان ، حفاظا على نقاء ادب المقاومة ، وتجنيبا له من ان يصبح ادب مساومة !

٢ . مكاسب لقضايانا

ليس امام المثقفين العرب الا ان يضاعفوا جهودهم لتوثيق علاقاتهم الفكرية مع المثقفين الاجانب ، سواء كان ذلك على صعيد الافراد ام صعيد المؤسسات .

---

(١) راجع مقاله في هذا العدد من « الآداب » وقد نشره اولا في جريدة « المحرر » البيروتية .

ان قضايانا السياسية والثقافية تكتسب ، يومابعد يوم ، مزيدا من عناية المثقفين الاجانب واهتمامهم. ومن شأن ذلك ، دون ريب ، ان يفتح المجال واسعا امام الثقافة العربية لتثبت وجودها على الصعيد العالمي .

اقول هذا بعد ان قرأت ما كتبه اديبان عالميان في تأييد الحق العربي . فقد كتب طاهر بن جلون (١) يتحدث عن موقف جان جينيه من الفلسطينيين، ويورد مقاطع مما كتب هذا الاديب الفرنسي البارز من وحي اقامته مدة عامين (١٩٧٠ ـ ١٩٧٢) مع الفلسطينيين، في المعسكرات والقواعد والجبال ، على فترات متقطعة. وقد كانت غايته من هذه الاقامة ان يعرف تاريخ هذا الشعب المنتزع من ارضه : « ومنذ وصولي الى الاردن، لاحظت ان الفلسطينيين لم يكونوا يشبهون الصورة التي يصورونهم بها في فرنسا . ورأيتني فجاة في وضع رجل اعمى اعيد له بصره . وبدا لي العالم العربي (...) اقرب جدا مما كانوا يكتبون » ويضيف جينيه قائلا : « لقد كشفت لنا الثورة الفلسطينية في فرنسا بصورة مفاجئة ، اي في ايار ١٩٦٨ . كان كل شيء ممزوجا تحت اسم « اللاجئين » . لم يكن ثمة من يشرح من اين اتى هذا الشعب ، لم يكن ثمة من يقول ان الاسرائيليين هم الذين طردوه من ارضه . »

وفي حديثه عن الفدائي يقول جينيه ان صورة هذا الفدائي اثارت نوعا من الصعق الفرح والمحرّر معا في العالم العربي وخارجه « حتى ولو كانت فعاليته غير مباشرة . انها تبقى على اي حال شحنة ثورية حية » .

هذا الصوت الفرنسي الذي يرفعه جان جينيه في قلب العالم الغربي كسب كبير يعوضنا عن الصوت الذي خسرناه في سارتر الذي كنا نأمل الا تتناقض مواقفه في دعم الثورات التحررية في العالم .

اما الصوت الآخر الذي كسبته القضية العربية (او ستكسبه عمليا) ، فهو صوت الكاتب البريطاني كولن ولسن الذي دعاه اتحاد الكتاب اللبنانيين منذ اسابيع الى لبنان . فقد اتيح له في هذه الزيارة ان يجتمع بعدد من المثقفين الفلسطينيين واللبنانيين ، فصرح بانه لم يكن مطلعا على القضية الفلسطينية من كافة جوانبها ، وقال : « ها انا في الشرق الاوسط . انني اكتشف حقائق جديدة لا يعرفها امثالي من البريطانيين او لعلهم لا يريدون ان يعرفوها . انني مقتنع الآن بان القضية العربية هي قضية عادلة. على الفلسطينيين ان يعودوا الى بلادهم التي اخرجوا منها. وحينما اعود الى بريطانيا ، سأكتب كثيرا حول هذا الموضوع . وسأحاول ان اكون موضوعيا . هذا ما سأقوله للمواطنين في بلدي: ان الفلسطينيين لا يجيدون التعبير عن قضيتهم العادلة بشكل جيد . وهذا شيء ينبغي ان يتخلصوا منه بأسرع وقت ممكن (...) يجب ان نضع الحقائق بين يدي الفرد البريطاني العادي ، وهذا يعني بان من واجب كتاب من امثالي ان يقوموا بعمليات الشرح والتحليل . انا وحدي لا اكفي . انتم بحاجة الى مئات من امثالي . يبقى ان نعرض القضية بموضوعية ونزاهة . فاذا عرضت بهذا الشكل ، فان الكثير من الناس سوف يقبلون عليها ، ويتحمسون لها. ان الانسان العادي يقتنع بالعدالة بسرعة شريطة ان نجيد عرضها عليه . » (٢)

ويقول كولن ولسن كذلك : « اني مقتنع بأن العرب سيصبحون في مدى عشر سنوات من الدول الكبيرة المؤثرة . ان العرب سيلعبون دورا هاما في التوازنات الدولية كالدور الذي تلعبه امريكا والاتحاد السوفياتي الان ، وانا مقتنع ايضا بان العرب سيسهمون في الحضارة الانسانية الجديدة مثلما اسهموا في الماضي ، اقول اكثر من ذلك ان العرب سيتحكمون بالعالم ثقافيا وحضاريا مثلما تحكموا في القرن العاشر . ففي العرب طزاجة حضارية لا يوجد نظير لها في العالم اليوم . انهم لم يفسدوا كما فسدنا نحن . انهم يرتبطون بجذورهم اكثر منا .. » (٣)

وحين ودعت كولن ولسن في مطار بيروت ، قال لي انه سيعود الى العالم العربي تلبية لدعوة من سوريا والعراق ، وهو يأمل ان يكون قبل عودته قد اصدر كتابا يضمنه آراءه في دعم القضية العربية .

هذا ايضا كسب للفكر العربي نستطيع ان نعتز به ، اذ سيتاح للقراء البريطانيين الاستماع الى صوت بريطاني يحدثهم عن حقائق كثيرة يجهلونها ويحاول ان يقضي على اوهام كثيرة نسجتها الدعاية الصهيونية في اذهانهم .

ان كل مثقف عربي يحسن لغة اجنبية مدعو لتكثيف اتصالاته بالمفكرين والادباء الاجانب . ان ذلك يضيف خدمة جلى ، على صعيد عالمي ، الى نتاجه الخاص ، على الصعيد العربي .

---

(١) الملحق السياسي الشهري لجريدة « لوند » ، عدد تموز ١٩٧٤ .

(٢) و(٣) مجلة « المعرفة » السورية ، العدد ١٤٩ تموز ١٩٧٤ ، مقابلة مع كولن ولسون اجراها الدكتور غسان الرفاعي .

٣ . حديث عائلي حميم ...

طوال شهري حزيران وتموز ، عاشت اسرتنا الصغيرة في جو متوتر محموم بسبب امتحانات آخر العام .

وقد تبين لنا سريعا ان الامتحانات لم يكن اولادنا الثلاثة وحدهم هم الذين يخوضونها ، بل كان الابوان كذلك يخوضانها معهم ... يذهبان معهم الى قاعات الفحص ، ويجلسان الى الطاولات ، ويرتعشان عند قراءة الاسئلة . ويعانيان من الصعوبات التي تتضمنها بعض الموضوعات المطروحة ، ثم يعودان الى البيت مرهقين ، فيتناولان لقمة سريعة ، وتأخذهما سنة من النوم قبل الانصراف الى المراجعة الاخيرة لمادة اليوم التالي ... حتى اذا انتهى اسبوع الامتحان ، تنفست الاسرة الصغيرة الصعداء ، ولكن لفترة قصيرة فحسب ... ذلك ان انتظار النتائج ، وقد طال هذا العام شهرا كاملا بالنسبة لشهادة الابنة البكر ، لا يقل ارهاقا واثارة للاعصاب من فترة تقديم الامتحانات .

ابنتنا الوسطى ، رنا ، (١٥ عاما) كانت اول اعضاء الاسرة تقدما للامتحان لنيل الشهادة التكميلية الرسمية (البريفه) . وكانت زوجتي عايدة غير متحمسة لان تخوض رنا هذا الامتحان الذي لم يكن مطلوبا ، ولم تدن المدرسة تعد له طلابها . فكانت تعتقد ان ذلك سيرهق البنت ، وانه يكفيها ان تفوز بشهادتها المدرسية . غير ان رأي البنت كان مخالفا ، فقد كانت اشد طموحا من ذلك ، وكانت تتميز بروح التحدي ، فاصرت على اقتحام الميدان . ودعمتها انا في موقفها : لاني اعتبر الطموح من ارفع مزايا الانسان ، حتى ولو سقط دون تحقيق مطامحه . وكانت تشاركها في طموحها وتحديها ابنة خالتها ، مهى ، فكانتا تقضيان معظم الوقت معا في الدراسة والتحصيل .. والثرثرة ايضا ... فتتقاسمان الصبر على مكاره المواد الصعبة ، وتتعاونان في حل المصاعب . وفي الاسبوع الاخير الذي سبق موعد الامتحان ، افتقدهما سريرهما ساعات طويلة من الليل كانتا تقضيانها في احضان الكتب والاوراق .

اما ابننا الصغير ، سماح ، (١٣ عاما) فكان يعاني بعض الشيء من مادة الرياضيات ، فكان لا بد من ان يكثف جهوده في الشهر الاخير ليتجاوز مكاره هذه المادة ... ولم اكن أجرؤ على توجيه اي لوم له ، او احاول الغمز من قناته لضعفه في الرياضيات ، لانني كنت موقنا ان رده على ذلك جاهز : انت آخر من يحق له اللوم او التوبيخ ! تفضل فاذكر ما كتبته عن نفسك وعن « عبقريتك » في الرياضيات .. اقرأ ما كتبته في « الخندق الغميق » ! كنت اذن اوثر التزام الصمت حتى لا يجابهني بذلك ! ومن يدري ، فقد يتمادى سماح في تهكمه ، فيؤكد انه ليس متحدرا من صلب « انشتاين » !

على انه كان ، بالمقابل ، موهوبا في اللغات . كان يحصل دائما على علامات جيدة ، وخاصة باللغة العربية . وبقدر ما كان هذا يثير اعتزازي ، كنت اخشاه .. مخافة ان يسلك الابن طريق الاب ، على درب الادب الشاق الوعر !

واما ابنتنا البكر ، رائدة (١٧ عاما) ، فهي التي كانت تستأثر بمعظم اهتمامنا ، وتثير لدينا اكبر قدر من القلق : ذلك انها كانت من الثقة بذكائها بحيث كانت غير جادة في الدرس والتحصيل . استدرك هنا بشيء ، حتى لا اظلمها : كانت تحب جميع المواد ، باستثناء العلوم والرياضيات (أليست هي ايضا ابنة ابيها ؟) وكان النزاع ينشب دائما بيننا (انا وامها) وبينها ، ولا نكف لحظة عن تحريضها وحثها على الدرس . وقد بلغ هذا التحريض المرهق حده الاقصى طوال هذا العام الدراسي ، لانه عام حاسم في حياتها العلمية : عام شهادة البكالوريا التي تعتبر في مجتمعنا مفتاح النجاح ومنطلق الفوز لسائر الشهادات والدرجات ...

واذن ، فلم يكن امام « رائدة » مفر من الرضوخ لضغط الوالدين ، لا سيما في الاشهر الثلاثة الاخيرة . والواقع اننا فوجئنا بانقلاب في سلوكها ، اذ رأيناها تنكب على الدراسة انكبابا عجيبا كان ان اثر على صحتها العامة ، فخشينا ان تصاب بسوء . وانصرفت عايدة لها انصرافا كليا ، تسهر الى جانبها ، وتعينها في درسها ، وترشدها الى الهام في مادتي الادب العربي والادب الفرنسي : ولا تكاد تفارقها لحظة ، حتى ان الام اصيبت بمثل ارهاق البنت ...

ولمزيد من الامل في التحصيل واستدراك ما فات ، طلبت مني رائدة ان آخذها الى منزلنا الصيفي ، وهي « موضة » درج عليها الطلاب في السنوات الاخيرة ، ورائدة مغرمة بكل « الموض » الجديدة ! غير اني لم اكن شديد الحماسة لشكي في أن تستطيع هناك تحصيلا اكبر . واصبحت ذات يوم ، فاذا بأبنتي تلح علي في اصطحابها الى المصيف ، فوعدتها بتحقيق ذلك في اليوم التالي ، بسبب ان سيارتي كانت بحاجة الى شد مكابحها التي كانت تشكو التراخي في تلك الفترة . ولكن رائدة لم تقبل العذر ، فكان لا بد من تنفيذ رغبتها .

وقبل بلوغنا المنزل الصيفي ، حدث ما كنت اخشاه : فقد انقطعت مكابح السيارة عند منحدر شديد ،

وواجهنا السقوط في واد خطير لم يكن امامي لتجنبه الا المخاطرة بصدم السيارة بدكان ذي باب حديدي مغلق كان يقوم على مشارف الوادي .

لم نهتم بالصدمة الشديدة التي تحطمت من جرائها مقدمة السيارة ، بل كان هم كلينا ان يطمئن على نجاة الآخر . وكانت رائدة اول من تكلم ، فصرخت مرتاعة :

ـ بابا .. دخيلك ، هل حدث لك شيء ؟

كان الدم الذي يسيل من جرح في خد رائدة اشد وقعا علي من ان احس على الفور بوجع الصدر الذي انتابني بعد قليل من جراء التحامي بمقود السيارة . ولمحت ابنتي قطرة دم تسقط على ثوبها، فلم تهتم بها ، بل كررت سؤالها وهي تقترب مني لتعانقني وهي تبكي ، فيما كنت اتمتم بأني بخير . ولكنها ظلت لحظة تعبر عن ندمها وتلقي على نفسها مسؤولية ما حدث بسبب الحاحها في الصعود الى المصيف .

احسست بمذاق الدم على شفتي، فيما كنت اضم رائدة ، وانا اخفف عنها واهديء نشيجها ، ثم تناولت ورقة ومسحت بها خدها فتبينت ان الجرح سطحي بسيط ، فذهب خوفي واطمأنت نفسي .

غير اني لم افهم على الاطلاق ، وما زال هذا مغلقا علي حتى الان : ما الذي دفعني لان اقول لابنتي ، من غير تفكير ولا تأمل :

ـ ستنجحين في الامتحان يا حبيبتي !

كان هذا اشبه بكشف صوفي .

* * *

كان سماح اول من تلقى نبأ نجاحه في مدرسته بدرجة جيدة . وقد دفع الي ورقة علاماته وهو يقول بما يشبه الاعتزاز :

ـ اقرأ تعليق الاستاذ على علامة اللغة العربية !

فقرأت العبارة : « ان فرخ البط لعوام ! » . فابتسمت . ولكنها تحولت بعد ذلك الى بسمة حزينة ... نبوءة مرشحة للتحقق : سائر على درب ابيه الشاق الوعر !

ثم تلقت رنا نتيجة الامتحان : نجحت هي وابنة خالتها مهى . بل كانتا الفتاتين الوحيدتين الناجحتين بين ستة عشر طالبا من زملائهما تقدموا لشهادة الكفاءة .

ورفعت رنا قبضة يدها ، وفعلت مهى مثلها : لقد نجح التحدي والطموح !

وحين اخذت رنا المبلغ المالي الذي وعدناها به ، قالت بفخر :

ـ اليوم يبدأ استقلالي الحقيقي !

(كنت دائما اقول لها ان الاستقلال الحقيقي يبدأ بالاستقلال الاقتصادي ... ولكن ما قالته كان مغالطة: فالاستقلال الاقتصادي لا يتحقق بالهدايا ! غير اني تجاوزت عن التعليق : أمن الضروري دائما افساد الفرح بالمحاكمات المنطقية ، لا سيما اذا كان فرحا ينبعث من البراءة والنقاء ؟)

بقيت رائدة . ولقد عشنا شهرا طويلا من القلق. وصلّت عايدة كثيرا (وهذا ما لم تكن تفعله من قبل !) ولم يشرب احد فنجان قهوة في منزلنا الا ودعت جارتنا الى قراءته لتستنتج من اية كلمة تقولها ما تطمح اليه من نجاح ابنتنا !.

في نتائج البكالوريا ، نالت رائدة علامتين متدنيتين (كما هو منتظر !) في الرياضيات والفيزياء والكيمياء. ولكنها نالت علامات جيدة في سائر المواد ، ولا سيما في اللغات .

وحين بلغتها نبأ نجاحها بالشهادة المنشودة ، بكت طويلا . وحين قبلتها ، احسست ، هذه المرة ، بمذاق الدمع . وقالت رائدة :

ـ تحققت نبوءتك يا بابا !

قلت : ـ بل انت التي تغلبت على كسلك وتحملت، بجدارة ، مسؤوليتك .

* * *

قالت عايدة وقد اكتسى وجهها بسيماء الرضى .

ـ اسمحوا لي الآن ان انام . اريد ان انام نهارا بطوله !

ودخلت الغرفة ، فرجوت الاولاد واولاد الجيران ان يحترموا ارادتها ، فراحوا يتكلمون همسا، والفرحة تتفجر على وجوههم .

ولكن لم تمض نصف ساعة ، حتى خرجت عايدة من الغرفة ، نشيطة مستبشرة ، وباشرت عملها في ترتيب المنزل ، تمهيدا لاستقبال المهنئين ...

سهيل ادريس